

## الترجيح بين أدلة المانعين والمجرذين وضوابط التفسير العلمي المقبول

عند التأمل في أدلة المعارضين والمؤيدين يتضح للباحث ما يلي:  
أولاً: قوة الأدلة التي ساقها كل طرف، وأهمية النظرة العلمية المتوازنة  
في أدلة الفريقين معاً.

ثانياً: لعل من أقوى أدلة المؤيدين - إن لم يكن أقواها على الإطلاق -  
أن الأصل هو جواز التفسير بالرأي، وهو ما استقر عليه العمل عند العلماء  
دون نكير، ولا ريب أن التفسير العلمي نوع من أنواع اجتهاد المفسر برأيه  
في زيادة إيضاح معنى الآية، وهذا الدليل يجعل مهمة المانعين صعبة في إقناع  
المتخصصين بالمنع من التفسير العلمي، فهو ليس بدعة غير معروفة وإنما هو  
تفسير بالرأي والاجتهاد بحسب العلوم والمعارف التي تظهر للمفسر  
ويقتضي بصوabها.

ثالثاً: أما ما ساقه المعارضون من أدلة تؤكد وقوع الزلل لدى أكثر  
الخانجين في التفسير العلمي، وأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة  
فهي حجة لا تثبت عند النقد العلمي فوقع الزلل ليس مبرراً للمنع بل  
يكفي أن توضع القيود الحائلة دون الواقع في الخطأ، ولو تم التوسيع في  
العمل بهذا المفهوم لربما خرج من التفسير بالتأثير لوقوع الزلل

عند كثير من خاصوا فيه فكانوا كحاطب الليل، وجمعوا من الغرائب والمناكير والموضوعات ما يجزم المختصون بأن ضرره أكبر من نفعه، ومع ذلك فلا يسوغ المنع من التفسير بالتأثير خشية من الوقع في أخطاء كالتي وقع فيها الشعلبي في (الكشف والبيان) على سبيل المثال..

رابعاً: أهمية ما ذكره المعارضون من أدلة الحاجة إلى اعتماد أكثرها كضوابط لقبول التفسير العلمي.

وخلاصة الأمر أن التفسير العلمي من أنواع التفسير بالرأي وأن منه ما يكون محموداً جائزًا حين يصدر عن علم أو غلبة ظن، ولا يتعارض مع الكتاب والسنة، ويكون صاحبه عالماً باللغة العربية وأصول الشريعة الإسلامية عاملًا بضوابط قبول التفسير العلمي، ومن التفسير العلمي ما يكون مذموماً محظياً حين يصدر عن جهل أو هوئ أو عندها معًا، ولا يتلزم صاحبه بضوابط قبول التفسير العلمي، وبالتالي فالالأصل هو جواز التفسير العلمي ولكن بضوابط.

## ضوابط التفسير العلمي

اجتهد الباحثون المعاصرون في صياغة ضوابط لقبول التفسير العلمي استبطوها في الغالب من أدلة المعارضين على التفسير العلمي، ولا سيما الشاطبي والخولي ومحمود شلتوت، لكن الذي يلفت نظر الباحث في هذا السياق خلو هذه الضوابط عندهم من ضرورة توافر شروط المفسر فيمن يفسر القرآن تفسيرًا علميًّا، ولو تم إعمال هذا الضابط لزالت معظم الأخطاء التي انتقدتها المعارضون لظهورها في كتب التفسير العلمي.

ومعلوم أن الكثير من كتبوا ويكتبون في التفسير العلمي ليسوا من أهل الاختصاص العلمي في مجال القرآن وعلومه خصوصًا وفي مجال العلوم

**ومن أهم الضوابط التي وضعها العلماء لقبول التفسير العلمي هي:**

- ١- القرآن كتاب هداية وليس كتاب علوم وكوئيات.
- ٢- ترك الإفراط والتفريط، أو عدم تحمل النصوص ما لا تتحمل.
- ٣- مرونة الأسلوب القرآني، وقبوله وجوهًا من التأويل.
- ٤- الحقائق العلمية مناط الاستدلال، فيجب الاقتصار عليها والابتعاد عن الفرضيات والنظريات.
- ٥- عدم حصر دلالة الآية على الحقيقة الواحدة، فلا يجزم بأن هذه الحقيقة العلمية هي التفسير الوحيد للآية دون سواه بل يبقى دلالة الآية مفتوحة.

٦ - استحالة التصادم بين الحقائق القرآنية والحقائق العلمية، فإذا ظهر تناقض فقد تكون الآية القرآنية غير قاطعة في الدلالة على المقصود، أو قد تكون القضية العلمية غير ثابتة بل هي نظرية أو فرضية.

٧ - اتباع المنهج القرآني في طلب المعرفة، بسلوك الأسباب الموصولة إلى حقائق المعرفة على وفق سنن الله التي أرشدنا إلى معرفتها.

٨ - موافقة اللغة العربية موافقة تامة بحيث يطابق المعنى المفسر المعنى اللغوي.

٩ - عدم مخالفة صحيح السنة المرفوعة أو ما له حكم المرفوع إلى النبي ﷺ.

١٠ - موافقة سياق الآية.

١١ - التحذير من أن يتعرض التفسير العلمي لأخبار وشئون المعجزات.

١٢ - أن يكون التفسير حسب الحقائق العلمية الثابتة دون النظريات.

تعد هذه الضوابط مهمة جداً في الحد من تجاوز من يتراوّز هذا النوع من التفسير على الخروج عن المقاصد الحقيقية للقرآن الكريم، بما يجعل من التفسير العلمي مقبولاً حتى عند كثير من عارضوه في أول الأمر.

## أمثلة تطبيقية على التفسير العلمي المردود والتفسير العلمي المقبول

**مثال التفسير العلمي المردود قوله تعالى:**

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِلَائِسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٣].

فقد فسر بعض علماء التفسير العلمي هذه الآية حسب منهجهم فيها بما توصل إليه العلم الحديث من غزو الفضاء، ومحاولة الوصول إلى الكواكب، فهذا هو النفاذ عندهم، والسلطان هو العلم التقني، ويررون بهذا أن القرآن سبق بالدعوة إلى غزو الفضاء.

ومما يُرد به على هذا التفسير:

١ - مخالفة دلالة اللغة فإن معنى النفاذ: «مجاوزة الشيء والخلوص منه»، يقال: نفذ السهم من الرمية إذا خالط السهم جوف الرمية وخرج طرفه من الشق الآخر وسائله فيه» .

وهذا ما لم يتحقق لرجال الفضاء، فلم يتجاوزوا عالمنا لعالم آخر كما أن السلطان في اللغة يطلق على الحجة والقدرة .

وفي استخدام مصطلح (غزو الفضاء) نظر فالغزو يكون لطرف آخر على عداوة مع الطرف الغازي، وفي الثقافة الغربية المعاصرة تصوير للعلاقة بين الخالق والمخلوق على أنها علاقة تحيد وحرب لأن الخالق - تعالى عما

يقولون - أراد منع الإنسان من الوصول إلى العلم ليظل خاضعاً له، لكنه تحداه ووصل إلى المعرفة كما في أسطورة إيزيس المزعومة فعاقبه بحمل حجر كبير والصعود به إلى أعلى الجبل، ثم العودة من جديد أبد الدهر.

٢ - **مخالفة أصول البلاغة العربية:** ذلك أن المقام في هذه الآيات هو مقام تحدي وإعجاز.

فالملتصق بـنفي القدرة لا إثباتها؛ لأنه لا يصح أن يقال في التحدي: لا يمكنك فعل هذا الأمر إلا بعلمك وقدرتك، فليس هذا من بلاغة الأسلوب في التحدي.

٣ - تقديم ذكر الجن على الإنسان يؤكد على معنى التحدي والإعجاز: لأنه قال تعالى عن الجن: «وَأَنَّا لَمَّا كُلِّمَاهُ فَوَجَدْنَاهُمْ لُلْقَاتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَشَهِيدًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعُ إِلَآنَ يَحِدُّهُ شَهَابًا رَصَادًا» [الجن: ٨] وهي سابقة في النزول على سورة الرحمن .

وقد أكد ذلك بنفي الانتصار لإتمام معنى التعجيز بقوله بعدها: «بِرَسْلٍ عَلَيْنَكُمْ شُواذٌ مِنْ نَارٍ وَخَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرُانِ» [الرحمن: ٣٥]. فلا يصح أن يقال أن غزو الفضاء بصورته اليوم انتصار، لأن الله قد نفاه وتوعده بإرسال الشواذ المحرق على من يحاول التفاذ من أقطار السموات والأرض.

٤ - مخالفة سياق الآيات: فحين تتأمل الآيات نجدها تتحدث عن فناء الخلق وبقاء الخالق «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانِ (٦٣) وَبَقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ»، وأن جميع الخلق يفتقرون إليه ويسألونه حاجاتهم «يَسْأَلُهُمْ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَانِ» [الرحمن: ٢٩]. وأنه سبحانه يهدد الجن والإنس بأنه سيفرغ لحسابهم يوم القيمة «سَنُفِرُّ لَكُمْ أَيْمَانَ الْقَلَائِنِ»، وهم لا يستطيعون الإفلات من سلطانه، بل يخضعون لحسابه وجزائه، وبهذا يتضح خطأ التفسير العلمي الذي قالوا به لأنه مخالف لسياق الآية ولغتها وبلامتها.

٥ - هذه الآية تشبه قوله تعالى: «وَمَا أَنْتُ بِمُعَذِّبِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ» [العنكبوت: ٢٢]. والأولى تفسير القرآن بالقرآن ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

وكذلك من من الأمثلة تفسير العلماء الدابة في قوله تعالى في الحديث الدابة المذكورة في قوله تعالى: «وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِغَايَتِنَا لَا يُوقَنُونَ» [النمل: ٨٢]. بالأقمار الصناعية في الفضاء، وفيه مخالفة للسنة حيث ورد النص على خروج الدابة صحي وأنها من علامات الساعة الكبرى.

وتفسيرهم لقوله تعالى: «وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا» [الزلزلة: ٢]، بالبرول والغاز عندما زلزلت الأرض وحركت بالآلات وهو تفسير فيه مخالفة لسياق الآيات التي تتحدث عنها بمحصل يوم القيمة وليس في الدنيا كما أنه مخالف للتفسير النبوي الذي نص على أن إخبارها شهادتها على كل عبد وأمه بما عمل على ظهرها<sup>(٢)</sup>.

ومن الأمثلة على التفسير العلمي المقبول قوله تعالى:

المثال الأول: عند قوله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا إِلَاسَنَ مِنْ سُلَانَةٍ مِّنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ۱۲ ۝ ثُرَّ خَلَقْنَا الْنُطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْفَكَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْفَكَةَ عِظَمَّاً فَكَسَوْنَا الْعِظَمَ لَحْمًا ثُرَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا أَخْرَى فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَلِيقَينَ ۝» [المؤمنون: ۱۲ - ۱۴].

وأشار د. زكريا هميبي إلى أن هذه الآية فضلت أطوار الخلق ووصفتها وصفاً مبهراً لا من ناحية المظهر الخارجي فحسب، ولكن أيضاً من حيث ميكانيكية عملية التخليل الداخلية التي تتم في كل طور منها.. حيث تم تقسيم مراحل تطور الجنين إلى ثلاث مراحل رئيسية: النطفة، التخليل (المرحلة الجنينية) مرحلة النشأة خلقاً آخر (مرحلة الحميمية) وحتى قرب نهاية القرن التاسع عشر الميلادي كان علماء الأجنحة منقسمين إلى فريقين في هذه المسألة.

منهم من يرى أن الإنسان يكون مخلوقاً (خلقًا تامًا في الحيوان المنوى في صورة قزم). ومنهم من يعتقد بأن الإنسان يخلق خلقًا تامًا في بضة المرأة بينما بين القرآن مسئولية كل منها في عملية التخليل «فَلَيَنْظُرِ إِلَانَسَنُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِنْ مَلَوِ دَافِقٍ ۝ ۱ ۝ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصَّلْبِ وَالثَّرَابِ ۝» [الطارق: ۵ - ۷].

الكلب: الظاهر. التراب: وهي عظام ما بين الثديين في المرأة. وكلمة نطفة تدل على محدودية السائل، وهذا يتفق مع حقائق العلم الحديث، وورد ذكر النطفة في القرآن في النبي عشر موضعًا، ووصف الرحم بأنه (قرار)

و(مكين) ينطبق على ما عرفه علماء الأجنة بعد نزول الآية بقرون من كونه أكثر المواضع أماناً وحماية في جسد المرأة.

ثم أشار إلى معنى العلقة والمضغة والظامام في مرحلة التخليق التي تبدأ من الأسبوع الثاني وحتى نهاية الثامن والعلاقة في اللغة تأتي بمعنى التعلق والإلتصاق بالشيء، وبمعنى الدم الغليظ الجامد شديد الحمرة وي يعني دودة الماء التي تلتصق بالحيوانات وتتغذى بدمائها وهو ما ينطبق على الجنين في هذه المرحلة حيث يلتصق بالمشيمة ويتغذى من دماء الأم، وأما المضغة فمن معاناتها ما لاكته الأسنان، وقطعة اللحم بقدر ما يمضغ لا استثناء فيها ولا تمايز؛ ولا شكل فيها ولا تحيط، وهو ما ينطبق على الجنين في هذه المرحلة، حيث يبدأ ظهور الكتل البدنية المعروفة بالفلقات بمظهر يشبه طبع الأسنان في المادة المضوغة.

ثم يأخذ ظهر الجنين بالانحناء والتقوس مثلما تستدير المادة المضوغة قبل البلع، إلى آخر ما فسر به هذه الآيات تفسيراً علمياً مقبولاً .

## ومن أمثلة التفسير العلمي المقبول

عند قوله تعالى: «كُلَّمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَأْنَهُمْ جُلُودًا عَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ» [النساء: ٥٦].

وأشار د. صلاح الدين خطاب إلى ما فرقه الأطباء بعد فرورهن من نزول الآية من أن حدود الشعور بألم الكي يكون في الجلد السطحي، فلو احترق الجلد ووصل إلى اللحم لما كان هناك شعور بالألم بدرجة الحالة السابقة لأن الأعصاب التي تشعر بالألم موجودة في الجلد الخارجي، أما الأنسجة والعضلات الداخلية فالإحساس فيها ضعيف فكأن الآية تبين أن النار كلها انضجت الجلد الذي يحتوي على أعصاب الإحساس بالألم بجددت هذه الجلد بجلود جديدة ليستمر الشعور بالألم .

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى: «فَمَنْ يُرِدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدَرَهُ لِلْأَسْلَانِ وَمَنْ يُرِدُ أَنْ يُصْلِهُ يَجْعَلْ صَدَرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ» [الأنعام: ١٢٥].

وأشار د. أحمد عمر أبو حجر إلى أن وجه التشبيه بين حال الكافر ومن يصعد في السماء صار أكثر وضوحاً نتيجة ما ثبت من كون الأكسجين الموجود في الغلاف الجوي يقل كلما صعد الإنسان في طبقات الجو إلى أعلى،

حتى تصبح كمية الأكسجين اللازم لعملية التنفس غير كافية فيشعر الإنسان بالاختناق وضيق الصدر وقد يصل إلى مرحلة عدم إمكانية الحياة<sup>(١)</sup>.

وهكذا نلاحظ أن الأمثلة الأخيرة كلها كانت خاضعة لشروط ضوابط التفسير العلمي التي حددتها العلماء مما جعلها تحافظ على مقاصد الشريعة الأساسية ولا تخرج عنها ولا تعارضها ولا تتعارض مع نصوص ثابتة من القرآن الكريم أو السنة النبوية وبالتالي كل هذا جعل من هذا التفسير العلمي للقرآن الكريم تفسيراً مقبولاً.

\*\*\*